التصوف نشأ إسلاميا

ونستطيع نحن أن نضيف ما يلي ، تدليلا" على أن الصوفية المسلمين قد استمدوا المعاني الرئيسية من تأمل الآيات القرآنية :

١ – فنلاحظ أولا" أن رجلا كالقشيري حينما يشرح مقامات الصوفية ، يبدأ شرحه لكل مقام ببيان الآيات القرآنية التي يستند إليها هذا المقام الصوفي . وإن لم يجد آية صريحة ذكر أحاديث . فذكر آيات قرآنية للأبواب التالية : التوبة – المجاهدة – التقوى ـ الخوف ـ الرجاء – الحزن ـ الجوع وترك الشهوة – الخشوع والتواضع ـ مخالفة النفس وذكر عيوبها ـ الحسد ـ الغيبة ـ القناعة – التوكل ـ الشكر ـ اليقين ـ الصبر ـ المراقبة – الرضا ـ العبودية – الإرادة – الاستقامة ـ الإخلاص ـ الصدق – الحياء ـ الحرية ـ الذكر ـ الفتوة – الفراسة – الخلق ـ الجود والسخاء – الغيرة – الولاية ـ الدعاء ـ الفقر – الأدب ـ السفر ـ الصحبة ـ التوحيد ـ أحوال الصوفية عند الخروج من الدنيا (= الموت) ـ المعرفة بالله – المحبة ـ الشوق ـ طاعة المشايخ ـ السماع – الرؤيا –

وهذه الأبواب تشمل معظم مقامات وموضوعات التصوف . فإن كانت لها أصول أو بذور من آيات القرآن ، فهذا دليل على أن تأمل هذه الآيات يمكن أن يتخذ بداية لاستقصاء المعاني الصوفية التي تدور حولها

وهنا قد يعترض فيقال : إن هذه التبريرات بالآيات لاحقة" على آراء الصوفية وليست أصولا لها ، وإن" القشيري قد تعمد ابتداء كل باب بأصله من القرآن لأنه قصد من « رسالته ، هذه إلى الرد على الفقهاء والمتكلمين الذين هاجموا التصوف بحجة أنه لم يبن على قواعد الاسلام وأنه بدعة لا أصل لها من القرآن والحديث وسلوك الصدر الأول.

لكن هذا الاعتراض يسقط إذا أخذنا بالاعتبارات التالية :

ا) إن التصوف الإسلامي كان تطورا متصلا طبيعيا من حركات الزهد في عهد الرسول وعند الحسن البصري وعبد الواحد بن زيد وابرهيم بن أدهم ورابعة العدوية ، مارين بمعروف الكرخي والحارث المحاسبي وأبي يزيد البسطامي والجنيد والحلاج حتى صوفية القرن الرابع الهجري ، وليس من شك في أن ما نجده عند الزهاد الأوائل والحسن البصري وحتى معروف الكرخي (المتوفي سنة ٢٠٠ هـ) من أقوال لا يفترض أكثر من التأمل العميق في بعض آي القرآن ، ولا يؤذن بثقافة عميقة واسعة خارجة عن هذا النطاق ورغم أن بعض الأصول اليونانية (أثولوجيا ، بعض نصوص لبرقلس) قد

ترجمت في القرن الثالث الهجري ، فإنه لا يبدو في أقوال صوفية القرن الثالث ، وهو أوج التصوف ، أثر لهذه الآراء اليونانية ، وإنما يبدأ تأثيرها منذ القرن الخامس الهجري .

ب) أن قسمات وحدة الوجود التي نجدها عند البسطامي (المتوفى والحلاج (المتوفى سنة ٣٠٩) ليس فيها من التعمق والتفصيل ما يؤذن بتأثير يتجاوز التأمل المتعمق لآيات القرآن في التوحيد،خصوصا الآية:(فأينما تولوا فثم وجه الله) (البقرة)

٢ – ونلاحظ ثانيا أن حياة النبي الباطنة ، خصوصا قبل البعثة ، كانت حافلة بأحوال صوفية عالية ، ودون أن نبالغ في ذلك كما بالغ – من غير شك – بعض الصوفية في الفصول التي عقدوها في كتبهم باسم « الاقتداء بالنبي » وغير ذلك من مواضع الاستشهاد بأحوالهم من أحواله ، لتقرر ما قرره القرآن أولا بالنسبة إلى حياة النبي التقوية .

٣) التهجد والذكر كما في الآيات:(واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا. ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) (الإنسان ٢٥ ٢٦)، و قم الليل إلا قليلا. نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا،(المزمل ٢ – ٤، ٨)، ٥ (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه)(الأنعام ٥٢)

ب) الصبر والاستغفار : « (فاصبر إن وعد الله حق، واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربك بالعشي والأبكار)(سورة المؤمن ٥٥) .

ج) التوكل :(وتوكل على الله، وكفى بالله وكيلا) (الأحزاب ٣)

د) محاسبة النفس: (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) (الأحزاب٣٧) ويؤكد الصوفية أنهم يقتدون بالنبي (ص)، حتى في المواجيد . يقول سهل بن عبد الله : « كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل ، وقال أبو سليمان الداراني : ربما تنكت الحقيقة قلبي أربعين يوما فلا آذن لها أن تدخل قلبي إلا بشاهدين من الكتاب والسنة ،

ويذهب البعض إلى حد" القول بأن أصل التصوف وجميع ما تكلم فيه الصوفية أربعة أحاديث . ذكر السراج : « يقال إن أصل جميع ما تكلموا فيه من علم الباطن أربعة أحاديث : (١) حديث جبريل عليه السلام حيث سأل رسول الله عن الإيمان والإحسان ، فقال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ... الحديث . (٢) وحديث عبد الله بن عباس (رضي الله عنه) أنه قال : أخذ رسول الله بيدي وقال لي : يا غلام ! احفظ الله يحفظك . (٣) وحديث وابصة : « الإثم ما حاك في صدرك ، والبر ما اطمأنت إليه نفسك » . (٤) وحديث النعمان بن بشير عن النبي (ص) الحلال بين والحرام بين . وقول النبي لا ضرر ولا ضرار في الاسلام .

وعبد القاهر بن عبد الله السهروردي في « عوارف المعارف » يؤكد هذا المعنى في كل موضع . فبعد أن قرر أن « الصوفية أوفر الناس حظا في الاقتداء برسول الله وأحقهم بإحياء سنته (٢) ، لأن الصوفية يهدفون إلى تزكية النفس بالأخلاق الكريمة ، والله تعالى قال في حق نبيه : « وإنك لعلى خلق عظيم » (سورة القلم ٤) فمن الطبيعي أن يتخذ الصوفية النبي قدوة في تحصيل الأخلاق الحسنة . ويسوق فهم الصوفية لهذا القول وتفسير هم له . فيذكر عن الجنيد أنه قال إن خلق النبي كان و عظيما لأنه لم يكن له همة سوى الله تعالى . وقال الواسطي : لأنه جاد بالكونين عوضا عن الحق وقيل : لأنه ـ عليه السلام ـ عاشر الخلق بخلقه وباينهم بقلبه . وهذا ما قاله بعضهم في معنى التصوف : التصوف الخلق مع الخلق ، والصدق الحق . وقيل : عظم خلقه حيث صغرت الأكوان في عينه بمشاهدة مكونها . وقيل : سمي خلقه عظيما لاجتماع مكارم الأخلاق فيه.

ويفصل السهروردي هذا ببيان أن ما دعا اليه الصوفية من أخلاق هي ما تخلق به النبي في سلوكه ودعا إليه في أحاديثه – من ذلك:

١ – أن من أخلاق الصوفية : التواضع – وقد قال النبي : (إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا ولا يبغي بعضكم على بعض) . . وكان من تواضع رسول الله أن يجيب دعوة الحر والعبد ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن ، ويكافىء عليها ويأكلها ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين » (« عوارف المعارف ، ص ٢٣٩) .

٢ – ومن أخلاقهم « المداراة واحتمال الأذى من الخلق . ـ وبلغ من مداراة رسول الله أنه وجد قتيلا من أصحابه بين اليهود فلم يحف عليهم ... بل وداه بمائة ناقة من قبله ، وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد » (٢٤٥) وعنه أنه قال : « المؤمن الذي يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » (٢٤٦) .

٣ – ومن أخلاقهم : « الايثار والمواساة . ويحملهم على ذلك فرط الشفقة والرحمة طبعا ، وقوة اليقين شرعا » (٢٤٧) . وفي هذا المعنى نزلت الآية : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، (الحشر ٩) .

٤ – ومن أخلاقهم التجاوز والعفو ومقابلة السيئة بالحسنة . وقد روي عن أنس عن النبي أنه قال : « رأيت قصورا مشرفة على الجنة ، فقلت : يا جبريل ! لمن هذه ؟ قال : للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، (٢٥٣) .

٥ – ومن أخلاقهم : البشر وطلاقة الوجه . الصوفي بكاؤه في خلوته وبشره وطلاقة وجهه مع الناس . » (٢٥٤) . وقال النبي : كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق (٢٥٠)

٦ – ومن أخلاقهم الانفاق من غير إقتار ، وترك الادخار . وروي عن النبي أنه نهى خادمه عن الادخار قائلا" : « ألم أنهك أن تخبيء شيئا لغد ؟! فإن الله تعالى يأتي برزق كل غد ، . وروي عنه أيضا أنه قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا » (٢٦١ ، ٢٦٣) .

٧ – ومن اخلاقهم التودد والتآلف والموافقة مع الإخوان وترك المخالفة . وقال عليه السلام : « المؤمن آلف مألوف ، لا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، (٢٦٩)

وهنا قد يقول خصوم الصوفية : إذا كان الأمر هكذا ، وكان التصوف اقتداء بالنبي وعملا بكتاب الله ، فماذا يفرق الصوفية عن الفقهاء وسائر المؤمنين ؟

ويرد الصوفية على هذا بأن الاختلاف هو في الفهم ، إذ يفهم الصوفية من نموذج النبي وأحاديثه ، ومن القرآن الكريم ما لا يفهمه الفقهاء والعامة من المؤمنين . وهم يسمون ذلك : « المستنبطات الصحيحة في فهم القرآن والحديث ، على حد تعبير أبي نصر السراج . فهم يرون أن لهم منهجا في فهم القرآن والحديث وحياة النبي يمكنهم من ايجاد علم جديد ، غير علم الفقه والكلام وسائر العلوم الإسلامية ، وهو « علم الاشارة ، الذي يكشف للصوفية و المعاني المذخورة واللطائف والأسرار المخزونة وغرائب العلوم وطرائف الحكم في معاني القرآن ومعاني أخبار رسول الله ـ من حيث أحوالهم وأوقاتهم وصفاء أذكارهم . قال الله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن" ، أم على قلوب أقفالها ؟ » (سورة محمد ٢٤) . وقال النبي : من عمل بما عليم ورثه الله تعالى علم" ما لم يعلم . وهو العلم الذي ليس لغيرهم من أهل العلم. وأقفال القلوب : ما يقع على القلوب من الصدأ لكثرة الذنوب واتباع الهوى ومحبة الدنيا وطول الغفلة وشدة الحرص وحب الراحة وحب الثناء والمحمدة – وغير ذلك من الغفلات والزلات والمخالفة والخيانات . » (١)

فالصوفية « استنبطوا من ظاهر القرآن وظاهر الأخبار معاني لطيفة باطنة وحكما مستطرفة وأسرارا مذخورة ... وهم أيضا في مستنبطاتهم مختلفون كاختلاف أهل الظاهر . غير أن اختلاف أهل الظاهر يؤدي إلى الغلط والخطأ والاختلاف في علم الباطن لا يؤدي إلى ذلك ، لأنها فضائل ومحاسن ومكارم وأحوال" وأخلاق ومقامات و درجات . ، وإذا قيل إن اختلاف العلماء رحمة ، فهذا يتعلق بعلم الظاهر كما يتعلق بعلم الباطن ، أي علم التصوف : فمن ناحية علم الظاهر من شأن الاختلاف بين العلماء فيه أن يرد المصيب على المخطىء ويبين للناس غلط المخالف فيتضح وجه الحق ، وبالنسبة إلى علم الباطن يلاحظ أن كل واحد من الصوفية « يتكلم من حيث وقته ، ويجيب من حيث حاله ويشير من حيث وجده » (١٠٧) – وبعبارة أخرى الاختلاف بين الصوفية طبيعي بحكم التصوف نفسه ، إذ التصوف يعبر عن أحوال ذاتية ومواجيد شخصية ، ومن هنا لا بد من اختلاف أقوال الصوفية وفي هذا فائدة لأرباب القلوب والمريدين .

كذلك استنبطوا من أحوال الأنبياء والمرسلين كثيرا من أحوال الصوفية ـ مثال ذلك :

١ ـ شرح الصدر : استنبطوه مما ورد في القرآن على لسان موسى « رب اشرح لي صدري » (سورة طه) .

٢ – الخلة : استنبطوها من قوله تعالى عن ابرهيم : « واتخذ الله ابرهيم خليلا ، (النساء ١٢٥) .

٣ – الرضا : مأخوذ من قوله تعالى للنبي : « ولسوف يعطيك ربك فترضى ، (٩٣ : ٥) .

٤ ـ التوبة : مأخوذ من قوله تعالى في شأن آدم : (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) » (٢٠ : ١٢٠) .

٥ـ المعصية : مأخوذ من قوله تعالى في شأن آدم :(وعصى آدم ربه فغوى) (٢٠ : ١١٩) .

٦ – المغفرة : من قوله تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، (٤٨ : ٢) ، وقوله : (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ، ثم أناب . قال : رب اغفر لي) ، (٣٨ : ٣٣) .

٧ – الصبر : من قوله تعالى في حق النبي:(واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) ، (٥٢ : ٤٨) .

وكذلك الشأن في مستنبطاتهم من الأخبار المروية عن النبي ، وقد عقد له السراج في « اللمع ، فصلا (ص ١١٣ – ١١٩) طويلا نكتفي بالإحالة إليه . وتلك هي الحجج التي يسوقها الصوفية وأنصارهم للدفاع عن التصوف وبيان أنه مستمد من القرآن والسنة لكن خصومهم يقولون إنهم يؤولون القرآن والسنة حسبما يتفق مع مزاجهم ، لا كما يقضي به النص الحرفي والمعنى اللغوي وما تواتر من تفسير.